

المجلد: 08 / العدد: 01 جوان (2024)، ص.ص. 120-129.

الرؤية النقدية عند الباقلاني

Baqalani's critical view

جليد أحمد

ahmed.djlid@univ-mascara.dz

جامعة مصطفى اسطمبولي - معسكر

(الجزائر)

تاريخ النشر: 2024/06/02

تاريخ القبول: 2024/05/17

تاريخ الاستلام: 2024/03/25

ملخص:

يهدف هذا البحث الكشف عن رؤية الباقلاني النقدية، من خلال البحث في قضية إعجاز القرآن الكريم، فالشعر - في رأيه - وإن كانت مقاصده غير التي جاء من أجلها القرآن الكريم، يحتل مكانة لا يضاهيها أي نظم في الاحتجاج على إعجاز القرآن. وقد استقرت في ذهنه وهو يدرس إعجاز القرآن فكرة الكمال إزاء النقص، فانطلق من فكرة التباين بين البلاغة القرآنية والبلاغة البشرية، ومن أجل إثبات تلك المزاي التي تميز القرآن في نظمه اختار أرقى النصوص الشعرية، ممثلة في معلقة امرئ القيس، وقصيدة البحتري. أما المنهج الذي توصل به لإثبات التفريق بين كلام الله وكلام البشر فهو منهج قائم على "المقارنة" بين القرآن من ناحية، وبين قمة ما أنجزه العرب شعراً من ناحية أخرى، وذلك بتحليل الشعر تحليلاً يهدف إلى تعداد العيوب ووجوه الخلل مثل الحشو والتكلف والتطويل واختلال النظم وتفكك أجزاء القصيدة، ومن وراء هذا كله يستدل على أنه ليس هناك مجال للمقارنة بين روعة النظم في القرآني وبين ما أتى به العرب من روائع القول.

كلمات مفتاحية: القرآن الكريم، الباقلاني، الإعجاز، النقد، الشعر

Abstract: This research aims to reveal the critical vision of Al-Baqalani, through research into the question of the miraculous nature of the Holy Quran. Poetry - according to him - even if its objectives are other than those for which the Holy Quran came, occupies an unprecedented position by any organization to protest against the miraculous character of the Quran. The idea of perfection in the face of imperfection took hold in his mind while he was studying the miracle of the Quran, so he started with the idea of the contrast between Quranic eloquence and human eloquence, and in order to To prove the advantages which distinguish the

Qur'an in its composition, he chose the most beautiful poetic texts, represented by the commentary of Imru' al-Qays, and the poem of al-Buhturi. As for the method used to prove the distinction between the words of God and the words of humans, it is a method based on the comparison.

Keywords: the Holy Quran, Al-Bakalani, Al-Ejaz, Criticism, poetry

مقدمة:

يعدّ كتاب إعجاز القرآن للباقلاني صورة جلية لما انتهى إليه البحث في مفهوم الإعجاز في نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس، وقد بين في مقدمة الكتاب هدفه، فقال إنّ الذين ألفوا في معاني القرآن من علماء اللغة والكلام لم يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانته مع أنّ الحاجة إلى ذلك البيان أولى.

يهدف هذا البحث إلى معاناة تجربة الباقلاني النقدية في ظل المدّ المنهجي الذي اجتاحت العقل النقدي العربي في القرن الرابع الهجري والتي تحتاج منا أن نترصد حدود التجربة في مدى استقلاليتها، والكيفية التي انعكس فيها صوت الناقد على جوهر النص الشعري، فلم يكن الباقلاني دارس أدب، ولكنه كان مفكراً عقائدياً، يعكس طبيعة فكر عصره. وقد استقرت في ذهنه وهو يدرس إعجاز القرآن فكرة الكمال إزاء النقص، فانطلق من فكرة التباين بين البلاغة القرآنية والبلاغة البشرية، ومن أجل إثبات تلك المزايا التي تميّز القرآن في نظمه اختار أرقى النصوص الشعرية، ممثلة في معلّقة امرئ القيس الذي أجمع النقاد على تقدّمه، وقصيدة البحتري لأنّ الكتاب يفضلونه على أهل دهره.

من هنا جاء اختيارنا لهذا الموضوع لما ينفرد به الباقلاني باعتباره واحداً من الذين حاولوا أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجوه الإعجاز من خلال فكرة الكمال إزاء النقص، ومن ثم تغدو رؤية الباقلاني النقدية هي إثبات تفوّق نظم القرآن الكريم على كل نظم، وقد اتّجه لأول مرة في تاريخ النقد العربي إلى تحليل نصّ طويل لشاعرين بارزين هما امرئ القيس والبحتري، إذ كنا نفتقد نظرة كاملة في نص واحد إلا ما ندر، بعد أن كان النقاد يقفون عند البيت والبيتين، ومن الأسئلة التي يحاول البحث الإجابة عنها، هي:

من أين ينطلق الباقلاني في رؤيته النقدية؟

وفيم تتلخص فكرة الإعجاز عنده؟

وما هو المنهج الذي توسل به لإثبات التفريق بين كلام الله وكلام البشر؟

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة، وتمهيد تناولنا فيه ظهور قضية الإعجاز، ثم انتقلنا للحديث عن فكرة الإعجاز كما يراها الباقلاني، وكيف تبلورت فكرة النظم عنده، وتوقفنا عند الباقلاني والمتلقي الناقد، لنبتين من خلال ذلك سؤال المنهج عنده، الذي أفضى إلى الحديث عن المعايير النقدية التي اعتمدها الباقلاني، ووصلنا في الأخير إلى خاتمة ذكرنا فيها أهم النتائج التي توصل اليها، وقد استعنا بالمنهج الوصفي التحليلي.

فكرة الإعجاز عند الباقلاني:

ظلّ الشعور بالعجز أمام كلام الله عزّ وجلّ مستولياً على القلوب والأذهان، ولكنه لم يترجم إلى دراسات فاحصة تتقده، قصد الوصول إلى معرفة الأثر العميق الذي تركه القرآن الكريم في نفوس العرب بطريقة فاقت ما ألفوه من فنون القول، ومحاولة تعليل ذلك. وقد وقر في قلوب العرب، وأدركوا أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، بل لا يمكن لأحد مهما بلغت مكانته في الفصاحة أن يأتي بآية، رغم معارضتهم للدعوة في بادئ الأمر.

وقد أدّى اتّساع رقعة الإسلام وخروج العرب من عزلتهم بعد دخول كثير من غير العرب في هذا الدين، إلى النظر في القرآن نظراً متممًا فاحصاً، إذ أخذت تغزوهم ثقافات الشعوب التي دخلت في الإسلام، وقد كان بعض الناس في عصر الباقلاني يرتابون في إعجاز القرآن وكان هذا الارتياب دافعاً له إلى درس الإعجاز من جميع أطرافه، ودفع الشُّبهة التي كان ينشرها الملحدون، وما كان يتعرض له الإسلام من حركات طعن وتشكيك من أصحاب الديانات القديمة. فانبرى الباقلاني يردّ على من أخذ يعدل القرآن الكريم إعجازاً ببعض الأُشعار، ويوازن بين القرآن وبين غيره من الكلام، هذه الفئة التي وصفها بأنهم محال يشككون في إعجاز القرآن، وأنهم لا يقلّون عما كانت تقوله قريش عن القرآن، وإن كان معاصروه الذين طعنوا في القرآن الكريم تابوا بعدما استنبأ رشدهم، وعرفوا طريق الحق بغريزة طبعهم، وحسن توفيق من الله.

يعدّ كتاب "إعجاز القرآن" للباقلاني صورة جلية لما انتهى إليه البحث في مفهوم الإعجاز في نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس، وقد بيّن في مقدمة الكتاب هدفه، فرأى أنّ الذين ألّفوا في معاني القرآن من علماء اللغة والكلام لم يبسطوا القول في توضيح جوانب إعجازه والدلالة على مكانته، وإظهار مدى تميزه على الرغم من أن الحاجة إلى ذلك التوضيح كانت أكثر أهمية.

تتلخص فكرة الإعجاز عنده في وجوه ثلاثة تتمثل في أن القرآن يتميز بالفردة، حيث يظهر فيه قدرة الله الفريدة، وعجز البشر عن مجاراته، ويبيّن أنّ ذلك الذي اعتمد عليه الناس عبر العصور، وذكر ما اختص به القرآن من الإخبار عن الغيوب، ومعرفة كتب المتقدمين، وأقاصيصهم، وأنبيائهم وسيرهم، مع أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان أميّاً، وأنّ القرآن بديع التظلم، عجيب التأليف، متناوٍ في البلاغة إلى الحدّ الذي يُعلم عجز الخلق عنه.

فكرة النظم:

مثّل مصطلح التظلم عند الباقلاني القطب الذي تحوم حوله جملة من المفاهيم، إذ ركّز على هذا الوجه تركيزاً خاصاً، لما له من أهمية بالغة في وسم النص القرآني بالإعجاز من جهة، وفي نقد النص الأدبي من جهة ثانية. غير أنّ الباقلاني لم يعترف بالنظم وإنّا اكتفى بذكره في سياقات مختلفة، مبرزاً أن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب، متردداً فكرة النظم ببساطة من سبقوه كالجاحظ والزّمانى والخطابي، يقول: «إن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويميّز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد (...) فهذا إذا تأمله المتأمل، تبين بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم، أنّه خارج عن العادة وأثمة معجز»⁽¹⁾. وإذا كان القرآن الكريم يتسم بهذه السمات، فإن كلام البشر لا يرتفع إلى هذا المقام، بل يمكن أن تنسب إلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها الاختلال والتكلف والتجوز، والشاعر يختلف عن الآخر تبعاً لما يكتب، فهناك من يجود في المدح دون الهجاء، وهناك من يبرز في الهجاء دون المدح. ومن هنا نرى التفاوت في شعر الشاعر بحسب الأحوال التي يتصرف فيها.

الباقلاني والمتلقي الناقد:

حدّد الباقلاني مستوى تلقي القرآن الكريم الذي تقع به الحجة، ورأى أن هناك تفاوتاً موجوداً بين المتلقين؛ بين المتلقي العربي والمتلقي الأعجمي، وبين المتلقي المتناهي في الصنعة (الناقد)، فالأعجمي الجاهل بالعربية، غير مهيأ لتلقي الإعجاز، وأمّا المتلقي الثاني فهو العربي الذي لا يعرف الفصاحة، وهذا كغيره من الأعاجم لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن، وعليه أن يقرّ بما أقرّ به أهل الفصاحة.

والمتلقي المتناهي في الصنعة الذي بلغ في الفصاحة شأنًا بعيدا وآم بثقافة واسعة باللغة ومعرفة تمكنه من التمييز بين الأساليب حسننها وقيبحها، واطلع على طرق المتكلمين وعلى أصول الدين، هذا المتلقي هو الذي اكتملت لديه أدواته المعرفية، وهو الذي يتوجه إليه الكاتب، ويخاطبه، وهو الذي يستطيع أن يدرك وجه الإعجاز. هذا المتلقي كان له بالغ الأثر في الحوار الذي أجراه في كتابه، إذ يستوجب وجود قدر من العناصر المشتركة بينه وبين هذا المتلقي حتى تؤدي عملية التلقي دورها.

وتمثل مهمة المتلقي الناقد في إدراك أوجه إعجاز النص القرآني، وهي مهمة لا تتوافر لدى الكثير من الناس، بل هي مهمة منوطة بفتة تناهت في معرفة البيان والفصاحة، وعلى من يكشف سر إعجازه الذي يكمن في نظمه وبديع أسلوبه أن يكون خبيراً بالأساليب العربية ليس في الشعر، أو في الخطب والرسائل، بل لابد من استكمال جميع تصاريف الكلام ووجوهه، لذلك كان العلم بإعجاز القرآن الكريم علمًا عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، إلا أن هذه القلة الناقدة قادرة على فحص الكلام، والوقوف على أسرارها، ولن يتأتى ذلك إلا من خلال تحليل أسلوب القرآن الكريم والكشف عما يميز به من خصائص أسلوبية فريدة، مختلفة عن غيره من النصوص الأخرى.

ويوصي الكاتب بضرورة المعرفة الموضوعية لبلاغة الكلام، والتي لا تلغي ذاتية المتلقي الناقد، فلكل ناقد ذوقه الخاص، وتبعاً لذلك يختلف النقاد في اختيار الكلام، وانتقاء النصوص الجيدة، وإذا كان الشعراء قلة، وهو على قلةهم متفاوتون، فإن النقاد مثلهم، ذلك أن نقد الكلام صعب، والتمييز بين أساليبه شديد.

وينوه باختيارات أبي تمام في "الحماسة" و"الوحشيات" ويراها أنموذجاً للاختيار الموفق، ولا يخفي إعجابه بذوقه الرفيع في الاختيار، وإنما يعود ذلك إلى أن الشعراء هم أرفع طبقات النقاد بما أنهم خبروا الشعر وعرفوا مسالكه ومضايقه وضروراته. وكان الباقلائي أدرك المضمر في اختيارات أبي تمام وما تتطوي عليه هذه العلمية من غربة للموروث، فما اختاره أبو تمام قامت عليه الشروح وعمليات النقد، أما ما لم يقع عليه الاختيار فلا يساهم في ذوق المتلقي.

ولا يقتصر الإعجاب بما اختار أبو تمام على الباقلائي وحده، حيث تلاقى معه المرزوقي في ذلك في أهمية الاختيار في رفع وتيرة التلقي، غير أن المرزوقي أشار إلى الفارق بين شعر أبي تمام وبين ما وقع عليه اختياره من شعر، مبرراً ذلك بأنه كان يختار ما يختار لجودته، أما شعره فكان يقوله بشهوته، ولذلك أثار شعره الجدل والاختلاف، بينما كان اختياره موضع رضا واتفاق.

الباقلائي وسؤال المنهج:

إنّ معاناة تجربة الباقلائي النقدية في ظل المدّ المنهجي الذي اجتاحت العقل النقدي العربي في القرن الرابع الهجري تحتاج منا أن نترصد حدود التجربة في مدى استقلاليتها، والكيفية التي انعكس فيها صوت الناقد على جوهر النص النقدي، فلم يكن الباقلائي «دارس أدب، ولكنه كان مفكراً عقائدياً، يعكس طبيعة فكر عصره. فكان لابدّ من أن يواجه القضية الكبرى التي شغلت ذلك العصر، ونعني بها قضية إعجاز القرآن، أسرارها ودقائقه»⁽²⁾، وكان لابدّ من النظر إلى القرآن الكريم ومقارنته بكلام العرب من شعر ونثر رفيع.

وقد استقرت في ذهنه وهو يدرس إعجاز القرآن فكرة الكمال إزاء النقص، فانطلق من فكرة التباين بين البلاغة القرآنية والبلاغة البشرية، وأنّ إعجاز القرآن يتمثل في نظمه، فنظم القرآن يزيد في فصاحته على كل نظم ويتقدم في بلاغته على كل قول، ومردّد هذا التباين قائم على مبدأ (الاستواء والتفاوت)، وهو المقياس الذي يفصل بين كلام البشر الذي يقوم على الاختلاف والتفاوت، وبين كلام الله الذي يقوم على الاستواء والاستعلاء، هذا التفاوت في

كلام البشر مرده إلى ما عليه حال النفس البشرية من تذبذب بين القوة والضعف، أما الاستواء في كلام الله فهو عام وشامل لجميع أجزائه وعناصره وفي كل مواطنه، ولن يستقيم النظم لشاعر إلا أن يكون صادرا عن تجربة، وأن تطابق العبارة المعنى دون زيادة أو نقصان.

وقد قاده ذلك إلى أن يستدلّ بما في الكلام البشري من تفاوت، إذ إن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيّناً في الفصل والوصل، والعلوّ والنزول، والتقريب والتباعد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع، ومن أجل إثبات تلك المزايا التي تميّز القرآن في نظمه على ما سواه من كلام البشر ودعم هذه الفكرة اختار قصيدتين إحداها معلقة امرئ القيس، وهي قصيدة متفق على كبر محلها وصحة نظمها، وجودة بلاغتها، ورشاقة معانيها.

وقد وقع اختياره أولاً على امرئ القيس الذي أجمع النقاد على تقدّمه على كل الشعراء فهو كبيرهم الذي يقرّون بتقدّمه وشيخهم الذي يعترفون بفضله الذي يأتون به وإمامهم الذي يرجعون إليه، ومعلقته تعدّ أولى المعلقات وقد اختاروها في السبعينات، وهو لا يشك في جودة شعر امرئ القيس وبراعته وفصاحته وأنه أبدع في طرق الشعر أموراً اتّبع فيها، كذكر الديار، إلى جانب التشبيه الذي أحدثه، والتصرف الكثير الذي نجده في شعره. وقد اتفق النقاد على علو منزلتها، وصحة نظمها، وجودة بلاغتها، لذلك اختار الباقلاني من المعلقة ستة وثلاثين بيتاً تمثل ثلثي القصيدة تقريباً، وراح يبيّن سقاطاتها بيتاً بيتاً.

والقصيدة الثانية للبحري، ومطلعها:

أَهْلًا بِذِكْكُمْ الْخَيَالِ الْمُقْبِلِ فَعَلَ الَّذِي نَهَوَاهُ أَوْ لَمْ يَفْعَلِ

ويبرر اختياره لقصيدة البحري، بحسن عبارته، وسلاسة كلامه، وعذوبة ألفاظه، ولأنّ الكتاب يفضّلونه على أهل دهره، ويقدمونه على من في عصره، ويستدلّ الباقلاني على جودة هذه القصيدة برأي البحري نفسه «سمعت صاحب إسماعيل بن عباد يقول: سمعت أبا الفضل بن العميد يقول: سمعت أبا مسلم الرُّسْتُمِي يقول: سمعت البحري يذكر أنّ أجود شعر قاله:

* أهلاً بذلك الخيال المقبل *

قال: وسمعت أبا الفضل بن العميد يقول: أجود شعره هو قوله:

* فِي الشَّيْبِ زَجْرٌ لَهُ لَوْ كَانَ يَنْزَجُرُ *

قال: وسئلت عن ذلك، فقلت: البحري أعرف بشعر نفسه من غيره»⁽³⁾.

أمّا المنهج الذي توسّل به في إثبات التفريق بين كلام الله وكلام البشر فهو منهج قائم على "المقارنة" بين القرآن من ناحية، وبين قمة ما أنجزه العرب شعراً من ناحية أخرى، وذلك بتحليل الشعر تحليلاً يهدف إلى تعداد العيوب ووجوه الخلل فيه لفظاً ومعنى وتركيباً، ثمّ مقارنتها بما في نظم القرآن من ميزات تبرهن على إعجازه، والأكد أنّ في النصوص المعتمدة في الدراسة «مسوّغات هذه الرؤية ومبررات هذا التوجّه، فلم يكن الاستدلال لإعجاز القرآن فيها إلا بحثاً في مكونات الخطاب، وتحليلاً لجوامع الصوّر فيه والأساليب وأنماط التعليق بين المفردات والجمال بحثاً عمّا أحله هذه المنزلة المميّزة الخارجة عن المألوف، المبينة لكلّ ما وقع للناس من صنوف القول وتصاريّف الكلام»⁽⁴⁾.

ولعل أهم ما رشح عن هذه المقاييس في اختبار المدونة النقدية، تلك النظرة الشاملة للقصيدة والسورة، إذ اعتنى الباقلائي بالنص إجمالاً، رافضاً النظرة التجزئية وإن لم يحلل كامل القصيدتين، وهذا ما استحسسه أغلب الدارسين.

المعايير النقدية التي اعتمدها الباقلائي:

اعتمد الباقلائي في تعامله مع قصيدتي امرئ القيس والبحري مبدأ "الموازنة"، وهو منهج يقوم على المقارنة بين أثرتين متفتحين في الموضوع مختلفين في الطريقة، وهو منهج احتكم إليه الأمدي (ت370هـ) في المقارنة بين أبي تمام والبحري. وقد كان الباقلائي معجباً بشعر البحري، ويفضله على أبي تمام لأنه مثل في شعره ما ينبغي أن يكون عليه الشعر العربي. كما استند إلى مبدأ "المقايضة" وهي النظر إلى شعر شاعر من خلال شعر شاعر آخر أو شعر آخرين. من خلال شواهد الشعرية الكثيرة، وهو مبدأ اعتمده القاضي الجرجاني (ت392) في الوساطة بين المتنبي وخصومه. كما نرى في وصف الثريا عند امرئ القيس في قوله:

إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ تَعَرَّضَ أَثْنَاءَ الْوُشَاحِ الْمَقْصَلِ
إِذْ أَتَبَعَهُ بِوَصْفِ ذِي الزَّمَةِ: وَرَدَتْ اغْتِسَافًا وَالثُّرَيَّا كَأَنَّهَا عَلَى قِمَّةِ الرَّأْسِ ابْنُ مَاءٍ مَحَلَقِ
وَقَوْلِ ابْنِ الْمَعْتَزِ: وَتَرَى الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهَا يَبْضُطُ أَذْحَى يُلْحَنُ بِقَدْفِ
وَقَوْلِهِ: كَأَنَّ الثُّرَيَّا فِي أَوَاخِرِ لَيْلِهَا تَنْشُخُ نَوْرًا أَوْ لَجَامَ مَقْصَصِ
وَقَوْلِ الْأَشْهَبِ بْنِ رُمَيْلَةَ: وَلَا حَتَّ لِسَانِهَا الثُّرَيَّا كَأَنَّهَا لَدَى الْأَفُقِ الْعَرَبِيِّ قُرْطٌ مُسْلَسَلِ
وتوصل إلى أن وصف امرئ القيس ليس فيه معنى بديعاً وإنما هو مشترك بين الشعراء.

وإذا كان كل من الأمدي والقاضي الجرجاني قد استندا إلى نصوص متشابهة من حيث الشكل الأدبي، فإن الباقلائي وازن بين نصين متباعدين؛ القرآن الكريم – كلام الله من جهة، وشعر امرئ القيس والبحري بوصفه يمثل كلام الفصحاء من جهة ثانية، وكانت وقفته مع ما يستجيده من شعر البحري أطول من وقفته مع ما يستجيده من شعر امرئ القيس، لما لها من مكانة في نفوس النقاد.

هذا المنهج جعله يتتبع النقائص والأخطاء من حشو ولغو وتكرار، ويوازنها بعدم وجود ذلك في آيات القرآن الكريم، وتما عاب به معلقة امرئ القيس نذكر:

● التطويل الذي يصل حدّ العي، وذلك عند ذكر الشاعر هذه المواضع "الدّخول" و"حومل" و"توضيح" و"المفزة" و"سقط اللوى"، في قوله:

فَقَدْ بَنَيْتُ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى يَبْنِي الدَّخُولَ فَحَوْلِ
فَتَوَضَّحَ فَلَمَقْرَآةٍ لَمْ يَغْفُ رَسْمُهَا لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالِ

● الخروج عن المؤلف من الأخلاق، ويظهر موقفه هذا عندما وقف عند أبيات امرئ القيس التي تروي مغامراته النسائية، منها قوله:

فَقُلْتُ لَهَا سَيَّرِي وَأَرْخِي زِمَامَهُ وَلَا تُبْعِدِينِي مِنْ جَنَاحِ الْمُعَلَّلِ
فَمِثْلُكَ حُبْلَى قَدْ طَرَفْتُ وَمُرْضِعَا فَالْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَامٍ مُغْبِلِ
إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْحَرَفَتْ لَهُ بِشَقٍّ وَشَقٍّ عِنْدَنَا لَمْ يُحَوَّلِ

ويبدو أن الباقلائي لا يتسامح، ولا يقبل أبيات امرئ القيس التي تتنافى مع المقبول من التلميح إلى الصراحة، وبخاصة البيت الثالث الذي هو غاية في الفحش ونهاية في السخف، وواضح أن الكاتب يحتكم إلى المضمون الأخلاقي، وقد جرى في نقد المعلقة على هذا النهج في سائر أبياتها.

● التكلف مع قلة الفائدة، في قوله:

كَذَابُكَ مِنْ أُمِّ الْحَوِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتَهَا أُمُّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلٍ
إِذَا قَامَتَا تَصَوَّعَ الْمِسْكُ مِنْهُمَا نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا الْقَرْفُلِ

فالبيت الأول قليل الفائدة، ليس له مع ذلك بهجة، أما البيت الثاني فوجه التكلف فيه قوله: "إِذَا قَامَتَا تَصَوَّعَ الْمِسْكُ مِنْهُمَا" ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيباً على كل حال، أما في حال القيام فقط، فذلك تقصير.

● اختلال النظم، من أهم ما وقف عنده الباقلائي قضية "الوحدة" في الشعر، وهو يسير فيها على مستويين؛ الأول: الوحدة داخل البيت، والثاني؛ تناسب البيت مع غيره من الأبيات.

وقد أثار النقاد القدامى هذه القضية، فعابوا تفاوت البناء داخل البيت الواحد ودموا الأبيات المتنافرة، يقول الجاحظ: «وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل الخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان»⁽⁵⁾. فالشعر عنده ما كان متلاحم الأجزاء، سهل الخارج، كأنه قد أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً، ليس معنى مجرداً عن اللفظ، ولا ألفاظاً مجردة عن المعنى، وكأنه نظر إلى الصياغة التعبيرية ورأى أن جمال هذه الصياغة لا يتحقق إلا بحسن اختيار الألفاظ وحسن انتظامها، معتقداً أن ذلك سيؤدي لا محالة إلى الكشف عن جمال المعنى.

وينظر الباقلائي في قول امرئ القيس: إِذَا قَامَتَا تَصَوَّعَ الْمِسْكُ مِنْهُمَا نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا الْقَرْفُلِ فيرى أن ثمة انقطاعاً بين المصراعين الأول والثاني، ويشير إلى أن قوله "نَسِيمَ الصَّبَا" في تقدير المنقطع عن المصراع الأول، لم يصله به وصل مثله. وهو هنا يؤكد غياب فكرة النظام الذي ينطلق من البيت إلى كامل القصيدة، وهي فكرة أشار إليها كثير من النقاد.

وكذلك قوله: فَقَالَتْ يَمِينُ اللَّهِ مَا لَكَ حِيلَةٌ وَمَا إِنْ أَرَى عَنْكَ الْغَوَايَةَ تَنْجَلِي
فالكلام في المصراع الثاني منقطع عن الأول، ونظمه إليه ضرب من التفاوت.

● الحشو، وذلك في قوله:

فَقَاصَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ مِثِّي صَبَابَةً عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَ دَمْعِي مَحْمَلِي

ففي قوله: "فَقَاصَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ"، ثم استعانت به بقوله: "مِثِّي" استعانة ضعيفة عند المتأخرين في الصنعة، وهو حشو غير مليح ولا بديع. وقوله: "عَلَى النَّحْرِ"، حشو آخر، لأن قوله: "بَلَ دَمْعِي مَحْمَلِي" يغني عنه ويدل عليه. ولاحظ الباقلائي أن إحساس الشاعر بأن دموعه قد أفرطت في الإفازة، لا يبدو من كلامه، ويتضح ذلك من أن الدمع بَلَ المحمل، ثم إن الشاعر ومن باب المبالغة كان حرياً به أن يستخدم كلمة يقطر أو يسحّ بدل (يل) ليكون أبلغ.

ومن صنوف الحشو كذلك قوله:

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْحِدَرَ خِدَرَ غُنَيْرَةٍ فَقَالَتْ: لَكَ الْوِيَلَاتُ إِنَّكَ مُرْجَلِي

تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الْغَبِيطُ بِنَا مَعًا عَقَرْتُ بَعِيرِي يَا امْرَأَ الْقَيْسِ فَاَنْزَلْ
ففي قوله: الخدر خدر عنيزة، إنما هو تكرر لإقامة الوزن، وأنه لا فائدة فيه غيره، ولا رونق.
● السوقية والعامية، في قوله:

يَطْلُ الْعَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا وَشَحْمِ كَهْدَابِ الدَّمَشِ الْمُتَلِّ

رغم أن بعض الأدباء يعدونه حسناً، ويعدون التشبيه مليحاً واقعاً، وذكر تشبيه أحدها بشيء واقع للعامية، ويجري على
ألستهم، وعجز عن تشبيه القسمة الأولى فترت مرسله، وهذا عجز عن إعطاء الكلام حقه.
ويتبع الكاتب السلامة اللغوية، فيرى أن الشاعر كان ينبغي أن يقول: "لما نسجها"، بدل أن يقول: "لما نسجتها من
جنوب وشمال"، ولكنه تعسف فجعل "ما" في تأويل تأنيث لأنها في معنى الريح، والأولى التذكير دون التأنيث، ويعتقد
الكاتب أن ضرورة الشعر قد قادته إلى هذا التعسف.
ويحاول أن يلخص لنا نتائج قراءته لهذه القصيدة فيذكر النقائص ولكنه لا يحدد ما فيها من جودة، يقول: «وقد بيتاً لك
أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتاً بيتاً في الجودة والرداءة، والسلاسة والانعقاد، والسلامة والانحلال،
والتمكّن والاستصعاب، والتسهّل والاسترسال، والتوخش والاستكراه، وله شركاء في نظائرها ومنازعون في
محاسنها، ومعارضون في بدائعها»⁽⁶⁾.

وقبل الوقوف مع الباقلائي في نقده لقصيدة البحري ينبغي أن نشير إلى أمر وهو أنه كان يدرك الفرق بين شعر امرئ
القيس وطبقته من جهة، وشعر البحري وطبقته من جهة أخرى، وأهل الصنعة يعرفون هذا ويفصلون بين طبائع
الشعراء من أهل الجاهلية وبين المخضرمين وبين المحدثين.
وكان نقده لقصيدة البحري كنقده لقصيدة امرئ القيس، وكانت وقفته مع ما يستجيده من شعر البحري أطول من
وقفته من كلام امرئ القيس، وهو وإن أوضح بعض جوانب الجودة فيها، إلا أنها رديئة من ناحية بنائها العام، ومما عاب
به لامية البحري نذكر:

■ الحشو والتطويل، في قوله:

أَهْلًا بِذِكْكُمْ الْخَيَالِ الْمُقْبِلِ فَعَلَ الَّذِي نَهَوَاهُ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ

بَرَقَ سَرَى فِي بَطْنِ وَجَرَةٍ فَاهْتَدَتْ بِسَنَاهُ أَعْنَائِ الرِّكَابِ الضَّلَلِ

ففي قوله: "ذلك الخيال" ثقل روح، وغيره أصلح، وأخف منه قول الصنوبري:

أَهْلًا بِذَلِكَ الزُّورِ مِنْ زُورٍ شَمْسٌ بَدَتْ فِي فَلَكَ النَّوْرِ

ويقول الأستاذ سيد صقر في ذلك: «ولست أشك في أن الباقلائي حادّ عن جادة الصواب عندما حكم بأن
بيت الصنوبري أخف من بيت البحري، وغني عن البيان أن بيت الصنوبري ثقیل بالغ الثقل، وحسبه أن يجتمع في
شطره الأول " الزُّور من زُور"، وأن يكون في شطره الثاني كلمة " النَّوْر" ليأخذ سبيله إلى مستقره في حضيض
الشعر الأوهده»⁽⁷⁾.

أما على مستوى الألفاظ، ففي قوله: "فَعَلَ الَّذِي نَهَوَاهُ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ"، ليست بكلمة رشيقة، ولا لفظة ظريفة،
وإن كانت كسائر الكلام.

ويثني الباقلائي على البيت الثاني، فيراه عظيم الموقع في البهجة، وبدیع المأخذ، حسن الرّواء، أنيق المنظر
والمسمع، يملأ القلب والفهم، ويفرح الخاطر، وتسري بشاشته في العروق.

وفي قوله:

من غَادَةِ مُنِعَتْ وَتَمَنَعُ نَبَلَهَا فلو أَنَّهَا بُذِلَتْ لَنَا لَمْ نَبْذُلِ
كالبدرِ غَيْرَ مُحَيَّلٍ وَالْغُصْنِ غَيْرَ رَ مُمَيَّلٍ وَالْدَعِصِ غَيْرَ مُهَيَّلِ
فالبيت الأول على ما تكلف فيه من المطابقة، وتجشّم الصنعة، ألفاظه أوفر من معانيه، وكلماته أكثر من فوائده .. ولو قال: هي ممنوعة مانعة، كان ينوب عن تطويله، وتكثيره الكلام وتهويله!
وأما البيت الثاني، فالتشبيه بالبدر والغصن والدعص، أمرٌ منقول متداول، ولا فضيلة في التشبيه بنحو ذلك.
وأما قوله:

ما الحُسْنُ عِنْدَكَ يَا سَعَادُ بِمُحْسِنٍ فيما أَنَاهُ وَلَا الْجَمَالُ بِمُجَمِّلِ
غُذِلَ الْمَشُوقُ وَإِنَّ مِنْ شَيْمِ الْهَوَى فِي حَيْثُ يَجْهَلُهُ لَجَاجُ الْغُدْلِ
ففي قوله في البيت الأول: "عِنْدَكَ"، حشو، وليس بواقع ولا بديع، وفيه كلفة. والمعنى الذي قصده متكرر على لسان الشعراء.

■ عدم التناسب بين أجزاء النظم، في قوله:

ماذا عَلَيْكَ مِنْ إِنْطِظَارٍ مُتَيَّمٍ بَلْ مَا يَضُرُّكَ وَقَفَةٌ فِي مَنْزِلِ
إِنْ سِيلَ عَيٍّ عَنِ الْجَوَابِ فَلَمْ يُطِقْ رَجْعاً فَكَيْفَ يَكُونُ إِنْ لَمْ يُسْأَلِ
لا ينكر الباقلائي حسن البيتين وظرفهما، ورشاقتهما ولطفهما، وماءهما وبهجتهما، إلا أنه يرى أن البيت الأول منقطع عن الكلام المتقدم ضرباً من الانقطاع؛ لأنه لم يجز لمشافهة العادل ذكر، وإنما جرى ذكر العدال على وجه لا يتصل هذا البيت به ولا يلائمه.
وأما البيت الثاني، فإنه معلق بالأول، لا يستقل إلا به؛ وهو يعيبون وقوف البيت على غيره، ويرون أن البيت التام هو المحمود، والمصراع التام بنفسه — بحيث لا يقف على المصراع الآخر — أفضل وأتم وأحسن.
لقد وقف من خلال تحليله هذين القسمين من معلقة امرئ القيس ولامية البحري عند معايير نقدية قامت على تعداد العيوب أساساً مثل الحشو والتكلف والتطويل واختلال النظم وتفكك أجزاء القصيدة، ومن وراء هذا كله يستدل على أنه ليس هناك مجال للمقارنة بين الروعة في النظم القرآني وبين ما أتى به العرب من روائع القول، فالفرق شاسع بين كلام الله وبين كلام يتفاوت بتفاوت قائله.
- خاتمة:

وفي الأخير نخلص إلى النتائج التالية:

- يعدّ كتاب إعجاز القرآن للباقلاني صورة جلية لما انتهى إليه البحث في مفهوم الإعجاز في نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس.
- تفرد في منهجه؛ فقد اتجه لأول مرة في تاريخ النقد العربي إلى تحليل نصّ طويل لشاعرين بارزين هما امرئ القيس والبحري، بينما كان النقاد يقتصرون عند البيت والبيتين.
- المنهج الذي توسّل به إثبات التفريق بين كلام الله وكلام البشر فهو منهج قائم على "المقارنة" بين القرآن من ناحية، وبين قمة ما أنجزه العرب شعراً من ناحية أخرى.

- مثل مصطلح "التنظم" عند الباقلاني القطب الذي تحوم حوله جملة من المفاهيم، واستقرت في ذهنه فكرة الكمال إزاء النقص، فانطلق من فكرة التباين بين البلاغة القرآنية والبلاغة البشرية.

- حدّد الباقلاني مستوى تلقي القرآن الكريم الذي تقع به الحجة، ورأى أن هناك تفاوتاً موجوداً بين المتلقين؛ بين المتلقي العربي والمتلقي الأعجمي، وبين المتلقي العربي المتوسط، والمتلقي المتناهي في الصنعة (الناقد).

- الملاحظ على الباقلاني تلك النظرة القبلية والحكم المسبق، وهي تعكس القراءة المتحاملة المحكومة بآراء صاحبها العقدية، فقد أسقط كثيراً من الأحكام النقدية الجاهزة على النصين الأدبيين، فضلاً عن السكوت عن إبداع الشاعر مع التلميح إلى بعض مواطن الجودة.

- قائمة الإحالات:

- ¹- الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط3، ص36.
- ²- سليمان الشطي، الباقلاني ومعلقة امرئ القيس، مجلة معهد المخطوطات العربية، الكويت، ج28، ع1، جوان - جويلية 1984م، ص204.
- ³- الباقلاني، إعجاز القرآن، ص334.
- ⁴- حمادي صمود، من تجليات الخطاب، مكتبة المتنبي، الدمام، السعودية، ط1، 1433هـ - 2012م، ص32.
- ⁵- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1418هـ - 1998م، 1/67.
- ⁶- الباقلاني، إعجاز القرآن، ص277.
- ⁷- المصدر نفسه، ص93.

قائمة المصادر والمراجع:

- الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط3، (د.ت).
- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1418هـ - 1998م.
- حمادي صمود، من تجليات الخطاب، مكتبة المتنبي، الدمام، السعودية، ط1، 1433هـ - 2012م.
- سليمان الشطي، الباقلاني ومعلقة امرئ القيس، مجلة معهد المخطوطات العربية، الكويت، ج28، ع1، جوان - جويلية 1984م.